فلسفة الحركة الديمقراطية الآشورية..
ربيع فلسفتنا القومية

هرمز طيرو *

تطرقت في مقالات سابقة، وأخص بالذكر "لماذا وكيف نقراء التاريخ.. زوعا نموذجا"، عن رؤية الحركة الديمقراطية الآشورية للتاريخ، ومن ثم المغزى من قراءة التاريخ والاطلاع على المفردات الفكرية والأخلاقية والأجتماعية والسياسية التي تحركه وتؤثر في مجرى الاحداث وتطورها، اما في المقال الآخر والذي كان بعنوان "نهاية التاريخ.. زوعا نموذجا" فقد طرحت فيه، مفهوم الحركة الديمقراطية الآشورية "زوعا" عن التاريخ وعن نهاية التاريخ، او بتعبير آخر، متى يتوقف التطور في التاريخ.

ومن أجل الأسهام في ملء الفراغ الفكري الذي حدث في ساحتنا القومية نتيجة التطورات التي جاءت بعيد التاسع من نيسان ٢٠٠٣ وما افرزته بحكم الواقع، من المعطيات والمتطلبات والحاجات الجديدة، عليه نرى أنه من الضروري الآن أن نطرح السؤال التالي: هل لدى الحركة الديمقراطية الآشورية فلسفة قومية؟، وما هي هذه الفلسفة؟، وما هي الأسس الفكرية والاجتماعية والأخلاقية لهذه الفلسفة؟، وهل مفاهيم هذه الأسس هي مفاهيم مطلقة، أم انها في حركة مستمرة مرتبطة الأجزاء؟. ومن أجل الأجابة على كل هذه التساؤلات، علينا اولا ألقاء نظرة على مفهوم الفلسفة، وماذا تعني، وما علاقة الفلسفة بالتاريخ، وهل هما متناقضان متعارضان، أم هما شيء واحد؟ .

في الواقع، إن الفلسفة تعني الكشف عن الحقيقة، والحقيقة معناها مطابقة الفكر بالواقع، عليه تكون عملية الكشف عن الحقيقة في حركة مستمرة، والتي تتجسد دائما بأشكال وصور مختلفة، تعتمد على معطيات الزمن تبعا للظروف الموضوعية السائده في ذلك العصر. ولنأخذ مثلا بسيطا، القول المشهور "اعرف نفسك بنفسك" فإنها تختلف في تفسيرها وتحليلها عند سقراط مما لدى القديس اوغسطين، فهي عند سقراط تعني "أن يفهم الإنسان الحقائق التي هي بالأساس موجودة وتعج في داخله، وأن يكتشف نفسه بنفسه عن هذه الحقائق"، بينما هي عند القديس أوغسطين تعني "أن يكتشف الإنسان في نفسه الثالوث الذي مثله الله في الإنسان" على اعتبار أن الإنسان في نظر المسيحية هو صورة لله.. إذن نستطيع أن نستنتج، أن الاختلاف الذي نشاهده بين الأشياء، راجع بالأساس الى طبيعة الأشياء نفسها، وكذلك الى طبيعة المكان والزمان، وطبيعة حركة الواقع.

بينما نشاهد من الجهة الأخرى، أن التاريخ هو مجرد مجموعة عمليات تجري حسب قوانين موضوعية معينة ، عليه فإن كلا الموضوعين مختلفان، الفلسفة والتاريخ، حيث لا يمكن الجمع بينهما بالمعنى البدائي للكلمة، بل يمكن انشاء تاريخ فحسب، أو فلسفة فحسب.

وعلى الرغم من هذا كله، نجد عندما نلقي النظرة على العصور القديمة، أن هناك تداخل وتمازج بين الفلسفة وبين مرافق الحياة الروحية "على اعتبار أن الروح هي التاريخ نفسه حسب قول هيغل" ففي قديم الزمان، ومنذ أن عرف الإنسان الفلسفة، أي في النقطة التي ابتدأ عندها تكوين الفكر، لم يكن هنالك اي فصل بين الإنسان والفلسفة، بل على العكس، فإننا نشاهد وخاصة في المراحل الأولى من العصور اليونانية القديمة، أن التطابق الكلي والتمازج الشمولي بين العلم والفلسفة، كانت الصفة البارزة في الحياة العامة للإنسان، ولكن ما لبث أن ضاقت حدود الفلسفة، وبدأ الفصل بينهما يتسع شيئا فشيئا، حتى كاد الاستقلال يحل بين الاثنين، عندها بدأت صلة جديدة تظهر في الحياة العامة، لكن هذه المرة بين الفلسفة من الجهة والدين من الجهة الأخرى، وتطورت واستمرت هذه الصلة طوال القرون الميلادية الأولى، مرورا بالعصور الوسطى، حتى خضعت الفلسفة للدين بشكل شامل، الى أن جاء العصر الحديث "التنوير" فانفصلت الفلسفة عن الدين وكذلك أنفصل العلم عن الفلسفة.

وعلى صعيد نفسه، فقد ظهر في العصور الحديثة عامل مهم أخر أضيف الى عالم الفكر الفلسفي، وهو عامل القوميات، وذلك بعد نشوء الفكر القومي في البلدان الأوروبية في بدايات القرن الثامن عشر، حيث أصبح الضمير القومي، ضميرا حيا وحساسا، لذا اضطر المؤرخون المحدثون الى الكتابة ليس عن الفلسفة الأوروبية فحسب، إنما أخذوا يكتبون عن الفلسفة الألمانية أو الفلسفة الفرنسية أو الروسية أو الإنكليزية أو الإيطالية.. إلخ، ومعنى هذا كله، أن لكل فلسفة، طابعا قوميا أيضا، ولها خصائص معينة، وأسلوبها الخاص.

ومن هنا نلجأ مرة أخرى الى طرح السؤال السابق، هل لدينا فلسفة قومية خاصة بنا؟، وهل هناك قانون عام تستند عليه هذه الفلسفة في تطورها من الناحيتين الزمانية والمكانية؟.

ومن أجل الأجابة عن هذين التساؤلين، فقد اتخذت من مفهوم الحركة الديمقراطية الآشورية "زوعا" للفلسفة القومية نموذجا، يمكن البحث فيه، لأن حركة الحركة الديمقراطية الآشورية ليست سياسية فحسب، كما يتصور البعض، وإنما هي أيضا، حركة ثقافية، اجتماعية، اقتصادية، تحمل معها ربيع الحضارة الشاملة، هذه الحضارة التي ستكون أداة لإقامة أمتنا العريقة. حيث استطاعت الحركة خلال العقود الأربعة الماضية، من وضع الأسس العلمية في البحث النظري الصرف الذي يتجه نحو الكشف عن الحقيقة، الحقيقة التي شاهدناها سابقا، بمعنى مطابقة الفكر للواقع، هذا الفكر الذي هو اساسا نتاج الواقع، وهو سيقودنا حتما الى الفهم الصحيح لقوانين التطور الأجتماعي وحركته الديالكتيكية. وقد أدركت الحركة الديمقراطية الآشورية منذ البداية هذه المعادلة، مما أدى بها، من خلال الممارسة التجريبية الى خلق ونشر ثقافة جديدة بين أبناء شعبنا، ثقافة تتميز بالنزعة القومية الوحدوية ذات الأبعاد الإسانية. ومن هنا يمكن الإدراك، أن النزعة الوحدوية لفلسفة الحركة الديمقراطية الآشورية، تتسم في هذه المرحلة، بثلاث سمات مترابطة:

السمة الأولى: تقوم على أساس أن وظيفة الفلسفة هي في صنع تصور طبيعي للوحدة قائم على المعطيات التاريخية والجغرافية والاجتماعية.

السمة الثانية: استبعاد كل العناصر المثالية والميتافيزيقية، والأقتصار فقط علي ما يعطيه الأدراك الحسي والمعرفة.

السمة الثالثة: العودة الى الواقعية المباشرة التي هي بداية تكوين الوعي الخالص .

ويتضح من هذه القراءة، أن فلسفة "زوعا" تقوم في هذه المرحلة أيضا، على إنشاء ودعم مؤسسات المجتمع المدني، التي هي أساس البنية التحتية للنهوض بأية أمة، وقد تجسدت هذه النظرة الفلسفية في الممارسة الواقعية للحركة، التي تقوم على ركيزتين اساسيتين هما:

لركيزة الأولى: مشروع المجلس القومي الكلدوآشوري السرياني.

تم تشكيل هذا المجلس في النصف الثاني من شهر تشرين الأول عام ٢٠٠٣ وذلك من أجل إقامة اتحاد قومي، يعمل على تحقيق أهداف الأمة من النواحي السياسية والجتماعية والاقتصادية. لذا نرى أن أديولوجية المجلس القومي تقوم حسب منظور الحركة الديمقراطية الآشورية الفلسفي على المفاهيم التالية:

١. تتمثل في مفهوم المجلس للوحدة القومية، باعتبار أن المجلس القومي، هو ذلك الإطار الذي يمكن أن يحتضن جميع مكونات شعبنا من الكلدان الأشوريين السريان.

٢. النظرة الى شعبنا ككيان عضوي واحد، ذات مصلحة قومية واحدة.

٣. رفض المجلس مفهوم الحتمية التاريخية للصراع الطائفي والكنسي والعشائري والمناطقي عند شعبنا ، بل أعتبار هذه المفاهيم ، هي من مخلفات العقلية التي كانت سائدة في مجتمعنا ، خلال المرحلة العبودية والأقطاعية ، قبل وخلال القرون الوسطى.

٤. تطور أمتنا مرهون بوحدتنا وتنسيق جهودنا، وبمشاركة الجميع .

الركيزة الثانية: مشروع التعليم السرياني .

أن جميع المؤرخين والباحثين، أيا كانت أتجاهاتهم ، متفقون بدرجات متفاوته، في أن التعليم السرياني هو احد الدعائم الأساسيةلإحياء اللغة الأم، وخلق ثقافة قادرة على احتضان حضارة والتراث الكلدوآشوري السرياني، مما سيؤدي الي تكوين فلسفتنا القومية الخاصة، وذلك استنادا الى الوعي القومي المتنامي والمتعاظم بين الجماهير، نتيجة بلورة هذا الوعي، من خلال خلق العلاقة الجدلية بين تعليم لغة الأم وبين إيقاظ الروح القومية والأنتماء الوطني. ومن هنا تأتي اهمية قيام مشروع التعليم السرياني للحركة الديمقراطية الأشورية في اعادة بناء الهوية القومية، بعد قرون من التشرذم والذل والعبودية .

ومن أجل الفهم الأكبر لأهمية المشروع، لا بد لنا من اللجوء الى البحث القيم الذي كتبه الدكتور أدور يوخنا اوديشو" البروفيسور في جامعة نورث استرن – شيكاغو/ إلينوي" والذي كان بعنوان: "سياسة الحركة الديمقراطية الآشورية في التعليم.. مشروع مهم"، (نشر البحث بلغتين الإنكليزية والعربية) حيث عرض الباحث، العلاقة الموضوعية بين الانتعاش القومي والإنساني للغة وبين الديمقراطية ، وهنالك ايضا في البحث، تركيز على اهمية احياء اللغة وتنشيطها في حياة شعبنا الوطنية والقومية، وذلك من خلال استعراض الباحث للمراحل التاريخية الثلاث وكما يلي:

١. مرحلة البعثات التبشرية: ١٨٠٠ – ١٩١٨.

٢. المرحلة الحضرية: (موصل – حبانية – كركوك ..الخ) ١٩١٨ – ١٩٩١.

٣. المرحلة الزوعاوية: ١٩٩١ – الى الوقت الحاضر.

ولغرض اعطاء الصورة اكثر وضوحا للممارسة الفكرية الواقعية لفلسفة زوعا ، لا بد لنا من اضافة بعض مؤسسات المجتمع المدني الى الركيزتين اعلاه:

١. المركز الثقافي الآشوري/ دهوك.

٢. اتحاد الطلبة والشبيبة الكلدوآشوري.

٣. اتحاد النساء الآشوري.

٤. جمعية أشور بانيبال/ بغداد .

يقول الفيلسوف الألماني يوهان فشته عن المسألة الأساسية في الفلسفة "إن كل فلسفة لا بد أن تنتمي الى واحدة من مجموعتين، المادية أو المثالية" وبما أن هنالك صراع بين المجموعة المادية والمجموعة المثالية، بدأ منذ تكوين العقل عند الإنسان، ما ادى بهذا الصراع الى قيام المشكلة " المشكلة المعرفية" أي المشكلة التي تبحث في الصلة بين الذات وبين الموضوع، فهل الذات هو نتاج الموضوع، أو الموضوع هو نتاج الذات، وقد استمر الصراع بين هاتين المجموعتين "المذهبين" قائما الى أن جاء الفيلسوفين هيوم وكانت بمذهب جديد، هو مذهب "اللاأدري" اي الذين لا يعرفون، أي أولوية هي الصحيحة الذات "المثالية" أو الموضوع "المادية".

إذن، أين هي فلسفتنا القومية "فلسفة زوعا" من هذه المذاهب الثلاث؟ وأين تقف منها؟. وللإجابة الموضوعية على هذين الأستفسارين، وذلك من خلال القراءة العلمية لفكر زوعا ، يمكن لنا أن نستخلص ، من أن فلسفة الحركة الديمقراطية الأشورية في جزء منها تنتمي الى المجموعة المثالية ، أي بأولوية الفكرة "الآلة مثلا" او من خلال النظرة في الحياة او الوجود . بينما نرى في تفسيرهم للتاريخ ، يتبنون المنهج المادي المعرفي "المجموعة المادية" البعيد عن الرؤى الميتافيزيقية، وذلك من خلال تصورهم، أن التاريخ ليس له له أي دور في الوجود، بل أن الإنسان هو الذي يفعل كل شيء، بحيث في النهاية تقوده الى معرفة الحقائق الواقعية.

من هذا المنطلق، فإن الفلسفة القومية لزوعا، ستؤدي دورا متميزا في حياتنا اليومية، وفي جميع المجالات، بما في ذلك الفكر الذي سينتج منه حتما الوعي العقلي، بحيث يكون هذا الوعي، هو نقطة البداية في مسألة التوفيق بين مكونات شعبنا، ويسمح كذلك للمتناقضات الموجودة في الأنا.. وفي الآخر أن توازن نفسها بنفسها، وبطريقة تتلاءم مع طبيعة الإنسان الكلدو أشوري السرياني.

عن موقع "زهريرا دوت نت".

صلاح زينل

المصالحة.. طوق نجاة
ففعّلوها قبل أن تخبو جذوتها

حميد الموسوي ـ بغداد

مبادرة المصالحة الوطنية طرحت بوضوح وصدق جعلا الباب مشرعا بوجه من يريد العودة والانتظام مع السواعد التي أصرت على بناء العراق الجديد

التواصل المستمر لاجتماعات هيئة الحوار والمصالحة الوطنية يوحي بتطورات ايجابية في مسار عمل هذه الهيئة، ويؤكد على حصول تقارب في وجهات النظر للأطراف المشاركة، فخلال أقل من عشرين يوما عقدت هذه الهيئة ثلاثة اجتماعات وبأوقات متقاربة ما يعني وجود مستجدات تدفع باتجاه المزيد من اللقاءات والحوارات وإلا لما كان لهذه الاجتماعات وجود ولا للهيئة معنى. ومع أن الكثير من المحللين والمراقبين السياسيين وعلى كافة المستويات الاقليمية والدولية والمحلية بل وحتى الناس العاديين ظنوا أن المصالحة عسيرة وصعبة التحقق في ظل هذه الظروف الشائكة والتي تنبئ بحصول كارثة وشيكة إلا أن أخبار هذا الوطن وخالصي النوايا من مراجع دينية وسياسية وقادة أحزاب وحركات وتجمعات أصروا على انجاح مشروع المصالحة الوطنية وان تتم بأقرب فترة زمنية لعلمهم المسبق أن أبناء العراق الجديد لا يمكن ان يتم بساعد واحد وان شموخه يستحيل ان يقوم على عاتق واحد، وأن نهوضه وتقدمه واستقلاله مسؤولية الجميع مثلما انتكاسته– لا قدر الله– لا تستثني احدا. وحريقه يطال الأخضر واليابس، وغرقه يبتلع المركب بمن فيه وما فيه.

كما أن استمرار الخلاف والنزاع واتساع رقعة التناحر ستظل العائق الأول والمعرقل الأشد في طريق بناء عراق ديمقراطي فيدرالي جديد.

لهذه الأسباب والرؤى وبمرور الوقت تبلورت فكرة المصالحة الوطنية وشقت طريقها بخطوات جادة لينضم اليها الكثيرون ممن انتظروا استبيان الاوضاع وانجلاء الغبرة. لقد طرحت مبادرة المصالحة الوطنية بوضوح وصدق جعلا الباب مشرعا أمام أي طرف يريد المشاركة والعودة والانتظام مع السواعد التي أصرت على بناء العراق الجديد باستثناء الذين تلطخت أياديهم بدماء العراقيين وأصروا على تخريب العراق، ولذلك لاقت المبادرة هذا القبول وإن سارت بتباطؤ وحققت نجاحا متواضعا إلا أنها ساهمت في حلحلة الاحتقان والتنافر والتباعد الأمر الذي أفضى الى حصول وحلول لغة الحوار البناء بدل التناحر والاحتراب، والذي سيحقق الكثير من النجاحات اذا استمر وفق هذا النهج الواضح ان شاء الله.

خابت مساعي الإرهابيين وتبددت أحلامهم وتحولت إلى شعارات فجة ودعوات متخلفة ونعيق مستهجن

أن استبعاد المجرمين المصرين على ذبح الشعب العراقي وتخريب وتدمير العراق، وترك الباب مفتوحا بوجه المختلفين مع عملية التغيير سواءا في نظرتهم للاحتلال أوعدم تقبلهم للمعادلة الجديدة أو من الذين فضلوا الترقب وجلسوا على التل– هذا الفرز حدد بوضوح أركان المصالحة الوطنية ونوع الأطراف المساهمة في بنائها مما جعل عملية المصالحة الوطنية تتم في مناخ من التفاهم بعيدا عن التوتر والتشنجات.

صحيح أن الاستقرار الأمني لم يتحقق حتى الآن، وأن المفخخات والعبوات والأحزمة الناسفة لا تزال تفعل فعلها بأرواح العراقيين وممتلكاتهم ومؤسساتهم.. وأن عمليات الخطف والتهجير مستمرة في نشاطها، لكن هذه الفجائع– وبرغم فضاعتها التي خفت– فهي تهون أمام سقوط مشروع الارهاب المرعب والمتمثل في تحويل العراق الى ولاية من ولايات الكهوف كما مثبت في مخططاتهم وفي الوثائق التي عثرت عليها الأجهزة الأمنية في أوكارهم. لا شك أن هذا الهدف قد تبدد وخابت كل مساعي الارهابيين و؟أحلامهم ولم تبق إلا مجرد شعارات متخلفة مستهجنة.

كان من تلك الخطط الغادرة خطة لمحاصرة بغداد من مداخلها الخارجية بدءا بالضواحي المحيطة بها وقطع طرق المواصلات المؤدية اليها، وبعد عزلها يتم اسقاط مناطقها واحدة تلو الاخرى، واعلان كل منطقة "امارة" تمهيدا لتقطيع العراق وقتل وتهجير كل من يختلف مع منهج التكفيريين القائم على الغاء الآخرين وذبح واستئصال كل من يعترض طريقهم ويدين سلوكهم المتخلف.

وبنظرة فاحصة جادة في هذا المخطط المرعب المدعوم والممول من أطراف خارجية أغاضها تحرر العراق وقيام نظام ديمقراطي تعددي فيه، والمنفذ من عدة جهات حاقدة من نفايات وذيول السلطة السابقة الذين تضررت مصالحهم، ومن الحالمين بعودة سلطة البعث الدكتاتورية، ومن التكفيريين، والمتشردين من أتباع القاعدة ومن مثيري الفتن.. جمعهم حقدهم الأسود ومصالحهم وأهدافهم وأطماعهم فسلكوا أبشع الطرق وارتكبوا أقذر الجرائم في سبيل تحقيق مخططاتهم الاجرامية، بهذه النظرة يتبين حجم الكارثة التي ستحصل في العراق، ومدى الطوفان الذي سيحيل كل شيء فيه الى هباء فيما لو استطاع هؤلاء المتوحشون تنفيذ مخططهم الدامي خيب الله مسعاهم. وهذا بحد ذاته يجعلنا نهون ونتفه أعمالهم الخسيسة وإن كانت تقتات على دمائنا وتستنزف ثرواتنا وممتلكاتنا.

أن فشل وخيبة مشروعهم الغاشم تؤشرها دناءة أعمالهم التي تطال العزل والأبرياء في الأسواق وفي المساجد والكنائس والحسينيات، وفي تجمعات العمال ومجالس العزاء والتي ينفذها المخدرون المتشردون بسياراتهم المفخخة وأحزمتهم الناسفة، وأعمال الخطف والنهب والسلب والابتزاز التي فضحت إدعاءاتهم وكشفت سقوطهم، ومن هنا يأتي التعويل على مشروع المصالحة الوطنية، وضرورة تعضيدها واسنادها ومؤازرتها من جميع الأطراف الدينية والسياسية والجماهيرية، لتكون البلسم الشافي لجراح العراقيين النازفة منذ عقود، والنهاية المرجوة لأوجاعهم ومعاناتهم الأزلية، والرصاصة الأخيرة في قلب الإرهاب الذي يلفظ أنفاسه المخنوقة على يد العراقيين النجباء ليرمى في مزبلة التاريخ مع كل النفايات التي أرادت بهذا الوطن وشعبه سوءا.

وضوح الرؤية بين العراقيين أولاً

جابر حبيب جابر *

إن اشتداد وتيرة العنف في العراق واتساعه كما ونوعا وبوتائر متصاعدة واتخاذه أخيرا الاتجاه الأخطر، اذ يبدو ان طاحونة العنف العراقية لا بد ان تدور مستكملة دورتها بالاقتتال والتهجير الطائفي الواسع، وحيث يوضع البلد برمته امام مفترق خطير، فإن هذا يستلزم الا تكون المعالجات تقليدية او من نوع تلك التي تم تبينها ولم تثبت فاعلية او جدوى او بالبقاء في دائرة الجدل، وهنا اجد أنه لا بد ان نتجه الى بنية التفكير الاجتماعي التي تنعكس وتنمط السلوك السياسي، من خلال تناول ظاهرتين اساسيتين.. اولاهما ان الملاحظ على كل المستويات السياسية انها مصابة بخلل بين يتسم به العقل الجمعي، وهو القدرة الفائقة على تشخيص الخلل والنقد مع افتقار الى وضع المعالجات والحلول، وهذه ربما تعود باسبابها الى انها نتاج الابتعاد عن المشاركة السياسية طيلة تأريخنا، إلا ان الغرابة ان يظل ذلك يسود حتى بعد الوصول الى السلطة واتساع دائرة المشاركة في صنع السياسات واتخاذ القرارات، اذ استمرت النخب السياسية بامتلاك القدرة على التشخيص والنقد مع عجز عن ايجاد الحلول، إلا ان حتى هذه البراعة الاحادية الجانب باتت متأثرة بالاستقطابات والميول الكتلية مما جعلها تفترق بشكل حاد، بل تتقاطع في رؤيتها للمشكلة الواحدة، فلا نجد اتفاقا او مقاربات مشتركة للآن على تشخيص مسببات غياب الأمن واستعصاء جلب الاستقرار، فلو وفر الفرقاء السياسيون على انفسهم ذلك بانتدابهم وتكليفهم شركة استشارية لبحث هذه المسألة ولوضع حلول للخروج من دوامتها، لربما كان أجدى، اذ لا يعقل ان تضرب الفوضى في بلد وينهار سلمه الاجتماعي وتتدمر بناه ويطال القتل فيه وباتجاهات يصعب تصنيفها؛ عنف لو وزع على كل مجتمعات الارض لناءت بحمله، ولا نجد الى الآن رؤية موحدة له، فكيف اذن بالعلاج؟.

الا ان التفسير الأقرب لمسببات ما يجري والذي يستسيغه الجميع ويلقى هوى في نفوسهم، هو في إلقاء ذلك على الاجنبي الذي يعمل على فرقة ابناء البلد وزرع الفتن بينهم؛ وهذا يمثل امتدادا للعقلية التي ألفناها طيلة عصور وهي إسقاط التهم على الآخر سواء كان معارضا داخليا أو ذا بدعة والذي يربط دائما بالاجنبي اما كفكر وافد وغريب او مدعوم من الخارج، وبذلك تلصق به تهمة الخروج عن الاجماع ليسهل "تجزيره" عن المجتمع اي اقصاؤه عن الامة واجماعها ليسهل ضربه واستئصاله. ان عقلية إسقاط التهم على الآخر والتي هي إحدى الآليات التي اعتمدناها لتحقيق اجماع مفقود ولتسهيل تبرير وتفسير الاصطراعات البينية، الطبيعية ربما، تدور حول المصالح وتحدث في كل المجتمعات والتي نجحت في تقنينها وأطرت تنافسها من خلال مؤسسات وعجزنا نحن عن ذلك طيلة تاريخنا، لذلك نجد ان كل الأطراف ومهما اختلفت إلا انها تتفق وبمعدلات متفاوتة على تحميل وزر ما يحصل على المحتل، فهو وراء استمرار الانفلات الامني بل المغذي له وهو المحفز بل المحرض على الاقتتال الطائفي، وهو المسبب لفشل الحكومة بشلها واضعافها كمقدمة لاسقاطها واستبدالها بمشاريع اخرى مضمومة، وان ما يحدث في المجتمع من اصطراعات هي غريبة عن سلوكه، وبالتالي لا بد ان يكون من ورائها الاجنبي، ربما هذه الرؤية تمتلك جزءا من الحقيقة وتفيدنا نفسيا، ولكن ضررها الخطير بأنها تبرئ النفس من المسؤولية وتريحها عن اجتهاد الحلول وتحول الاتجاهات وتفشل المعالجة.

الظاهرة الاخرى التي هي مجتمعية لكن تنعكس بقوة وتتمظهر في السلوك السياسي، هي تغليف المصالح الذاتية والفئوية بشعارات وطنية كبرى، وهذا الميل والسلوك الذي نختزنه افرادا وجماعات، غالبا ما يقود الى اتجاهات مضللة، خصوصا عندما تكون هناك براعة باخفاء وتغطيس الدوافع الحقيقية ويتم ابراز جزء ظاهر الى الرأي العام الذي ينقاد بسهولة بسبب من كثافة التبرير والبراعة بربطه بالثابت الوطني او المقدس الديني.

اذ ان القضية في العراق لم تعد، وربما لم تكن، مسألة احتلال، بل هي مشكلة سلطة والخلاف على اقتسامها وما يستتبعها من توزيع واقتسام الثروة، لهذا فإنه سيكون هناك استغراب واندهاش كبير على تبادل الأمكنة في الموقف من استمرار الوجود الاجنبي اذا ما طرح جديا بعيدا عن الاجواء الاعلامية والكسب السياسي وممارسة الخداع الذي اتقنه الكثيرون بلعن المحتل نهارا وخطب وده ليلا، اذ ان الذي درج ومنذ البدء على الاصرار على سحب القوات الاجنبية كان يظن بأن ذلك سيجعله الطرف المهيأ للانقضاض على السلطة عند حصول فراغ ما بعد الانسحاب، لكن هذه المدركات غير الواقعية بدأت تهدأ وتلامس أرض الواقع، باستثناء عند من استمر بخوض معركة صفرية لتيقنه بأنه لن يكون له مكان في عراق مستقر، ثم أخذ البعض ويتطور لاحق يوظف المقاومة ضد المحتل ليس بهدف اخراجه، بل لابتزازه سياسيا وللضغط عليه لتعديل ميزان المعادلة السياسية. من جهة ثانية، فإن جزءا من الفعل المضاد للقوات الاجنبية او ذلك المنتهج تدمير البلد وابقاءه في أتون العنف، هو إما وسيلة لافشال المشروع المراد بناؤه في العراق، او حرب بالنيابة وفعل تخادم لمصلحة اطراف اقليمية تخوض معاركها عن بعد وفي ساحات الغير لدرء مخاطر التغيير عنها وبغية تحسين أوراقها التفاوضية.

أخلص الى مفارقة لافتة، الى ان الوجود الاجنبي في العراق بات ضارا ومرتهنا لخدمة الاطراف المتصارعة وعرضة للابتزاز المحلي والاقليمي، اكثر مما هو وسيلة للحل، وانه بدل ان يحمي من الانزلاق الى المخاطر المحتملة، فان مهمته اصبحت ادارة الفوضى وتحقيق التوازن بين اطرافها، وبات كابحا على بلوغنا سن الرشد، فهل هذه غاية مبتغاه استراتيجيا أم مجرد فشل؟.

* صوت العراق.